

المبحث السادس:

رئاء أولياء الله والبكاء عليهم

إن لمحبة الأولياء نتائج وآثار إيجابية تنعكس على نفسيّة الإنسان، والمحبّ لهم حبّاً حقيقياً يتخذهم قدواتٍ يقتدي بهم في الإيمان والتقوى والعمل الصّالح، حيث يُقلّدهم في ذلك ويسعى لأن يلحق بركبهم لينأى عن ركب الشيطان الرّجيم؛ لا سيّما مودّة خير خلق الله محمّد وآل بيته الطاهرين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وكذلك الصّالحين من صحابة رسول الله ﷺ، إذ إنّ التمسك بهم يرسخ الإيمان في النفس ويزين الفضائل الأخلاقيّة. وأمّا من يترك هذه المودّة فسوف تتزلزل دعائم إيمانه ويحيد عن جادة الحقّ وينزلق في مهاوي إبليس وجنده الذين يتربّصون بعباد الله المكائد. فكلّما ترسّخت هذه المودّة في النفس أكثر، ستكون ثمارها أوفر وأنضج، وإحدى علامات رسوخها هي إسالة دموع الشوق من الناظرين؛ حيث يتجلّى من خلالها عشقٌ يجول في غمار القلب بقطراتٍ تتلألُ على الوجنتين بعد أن شقّت طريقها للنور كالينبوع الذي ينبض بفيضٍ كان ساكناً في

الأعماق.

فالبكاء عند ذكر خير خلق الله تعالى دليلٌ على رقة القلب وظرافة الروح وصفاء الباطن. والعبد ببكائه على وليٍّ من أولياء الله يُثبت أن هذا الشخص حقاً عزيزٌ على قلبه، وبالطبع سيبدل قصارى جهده لينال رضاه، ومن البديهي أن رضا أولياء الله هو من رضا الله وأن حبهم يعتبر اتباعاً لما أمرنا به تعالى. لذا، يكون بكاء الإنسان عند ذكر الأولياء وازعاً لجلاء القلوب وإزالة صدأ الخطايا عنها وسدّاً منيعاً يصونها من الوقوع في فحش الشرك والتفاق، وبالتالي تترتب عليه صلابة الإيمان والتمسك بدين الله بإخلاصٍ وصدقٍ.

إنّ بكاء شخصٍ في مراسم عزائه أو عند ذكره في الحقيقة أمرٌ عاطفيٌّ ناشئ عن أحاسيس الإنسان ومشاعره، فعندما يفقد أيُّ منّا شخصاً عزيزاً على قلبه فسوف يذرف دموع الحزن عليه دون إرادةٍ؛ سواء أكان هذا العزيز من الأهل والأقارب أم وليّاً من أولياء الله الذين هم أعزّ من كلّ قريبٍ.

لذلك نلاحظ أنّ البكاء على الموتى كان معهوداً في زمن رسول الله ﷺ وصحابته وتابعيه. فالنبي ﷺ نفسه قد بكى أمّه وابنه وابنته، وكذلك فإنّ صحابته قد بكوه بعد وفاته كما بكوا أصحابهم ومقرّبيهم ونعّوهم برثاء حزينٍ، حيث استمرّ هذا الأمر بعدهم وجرت عليه سيرة التابعين والمسلمين تأسياً بهم.

ولإثبات ذلك، نذكر فيما يلي بعض الأمثلة على ذلك:

١ - روي عن أبي هريرة أنّه قال: «زار النبي ﷺ قبرَ أمّه فبكى وأبكى من حوله»^١، وروي عن بُريدة أنّه قال: «زار النبي ﷺ قبرَ أمّه في ألف مُقنّع فلم يُر

باكياً أكثر من يومئذ^١.

٢ - روى أنس بن مالك حديثاً بشأن وفاة إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، فقال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ وَالْقَلْبُ يَحْزَنُ وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضَى رَبَّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ»^٢.

٣ - كذلك روي عن أنس بن مالك قوله: «شَهِدْنَا بِنْتًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ عَلَى الْقَبْرِ، قَالَ: فَرَأَيْتُ عَيْنَيْهِ تَدْمَعَانِ»^٣.

٤ - روي عن أسامة بن زيد حديث يذكر فيه موت ابن بنت رسول الله ﷺ، فقال: «أَرْسَلْتُ ابْنَتَهُ النَّبِيِّ ﷺ إِلَيْهِ إِنَّ ابْنًا لِي قُبِضَ، فَأَتْنَا... فقام ومعه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ورجالٌ، فُرِّعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الصَّبِيِّ وَنَفْسُهُ تَتَّقَعُّعُ...

ففاضت عيناه. فقال سعد: يا رسول الله، ما هذا؟

فقال: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده

الرحماء»^٤.

٥ - روي عن ابن عمر أنه قال: «رجع النبي ﷺ يوم أحد فسمع نساء بني عبد الأشهل يبكين على هلكاهن، فقال: لكن حمزة لا بواكي له! فجنن نساء الأنصار يبكين على حمزة عنده»^٥.

٦ - ذكر الحاكم في المستدرک: «كانت فاطمة تزور قبر عمها كل جمعة فتصلي

١ - مستدرک الحاكم، ج ١، ص ٣٧٥.

٢ - صحيح البخاري، ج ٢، ص ١٧٩.

٣ - المصدر السابق، ص ١٧٢.

٤ - المصدر السابق.

٥ - كنز العمال، ج ١٥، ص ٦١٨.

وتبكي عنده»^١.

٧- رُوي عن أبي ذؤيب الهُدَلي أَنَّهُ قال: «قَدِمْتُ المَدِينَةَ ولأهلها ضَجيجٌ بالبكاء كضَجيج الحَجيج أَهلُّوا جَميعاً بالإِحرام، فقلتُ: مَه؟! قالوا: قُبِضَ رسولُ اللهِ ﷺ»^٢.

٨- رُوي عن عروة أَنَّ صَفِيَّةَ بنتِ عبدالمطلب أَنشدت شعراً ترثي فيه رسولَ اللهِ ﷺ، جاء فيه:

ألا يا رسولَ اللهِ كنتَ رخاءنا وكنْتَ بنا برّاً ولم تُكْ جافياً
وكانَ بنا برّاً رحيماً نبيناً ليك عليك اليومَ مَنْ كانَ باكياً
إلى أَن قالت:

أرى حسناً أيتَمَّتْه وتركتَه يبكي ويدعو جدَّه اليومَ نائياً
فدى لرسولِ اللهِ أُمِّي وخالتي وعمِّي ونفسي قصره وعيالياً^٣

٩- رُوي عن المثني بن سعيد أَنَّهُ قال: «سمعتُ أَنسَ بن مالك يقول: ما مِن ليلةٍ إلا وأنا أرى فيها حبيبي؛ ثُمَّ يبكي»^٤.

١٠- رُوي عن زيد بن أسلم أَنَّهُ قال: «خرجَ عمر بن الخطابَ ليلةً يجرُسُ، فرأى مصباحاً في بيتٍ، فدنا فإذا عجوزٌ تطرُقُ شعراً لها لتغزله - أي تنفسه بقدرح - وهي تقول:

على حمْدٍ صلاةُ الأبرارِ صلّى عليك المصطفون الأخيَّارُ

١ - مستدرک الحاكم، ج ١، ص ٣٣٧.

٢ - كنز العمال، ج ١٥، ص ٢٦٥.

٣ - مجمع الزوائد، ج ٩، ص ٣٩.

٤ - طبقات ابن سعد، ج ٧، ص ٢٠.

قد كنت قواماً بكِّيَّ الأسحار ياليت شعري والمنايا أطوارُ
هل تجمعني وحببي الأقدار؟!

تعني النبي ﷺ.

فجلس عمر يبكي، فما زال يبكي حتى قرع الباب عليها، فقالت: من هذا؟
قال: عمر بن الخطاب...^١

١١ - روى عاصم بن محمد عن أبيه قوله: «ما سمعتُ ابن عمر ذاكراً
رسولَ الله ﷺ إلا ابتدرتُ عيناهُ تبياناً».^٢

١٢ - روي عن أبي عثمان قوله: «رأيتُ عمرَ لما جاءه نعيُ النعمان، وضع
يدَه على رأسه وجعل يبكي».^٣

١٣ - ذكر الطبري في تاريخه: «ولما أتى أهل المدينة مقتلُ الحسين، خرجتُ
ابنةُ عقيل بن أبي طالب ومعها نساؤها وهي حاسرةٌ تلوي بثوبها وهي تقول:

ماذا تقولون إن قال النبيُّ لكم ماذا فعلتُم وأنتمُ آخرُ الأمم
بعترتي وبأهلي بعد مُفتقدي منهم أسارى ومنهم ضُرِّجوا بدم».^٤

١٤ - روى علي بن إسماعيل التميمي عن أبيه قوله: «كنتُ عندَ أبي عبد الله
جعفر بن محمد إذ استأذن أذنه للسيد فأمره بإيصاله، وأقعد حرَمَه خلف سترٍ،
ودخل فسلم وجلس. فاستنشهده، فأنشده قوله:

أمرٌ على جدِّ الحسين فقلُّ لأعظمه الرِّكيَّة

١ - كنز العمال، ج ١٢، ص ٥٦٢.

٢ - طبقات ابن سعد، ج ٤، ص ١٦٨.

٣ - كنز العمال، ج ١٥، ص ٢٢٧.

٤ - تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٣٤٢.

يا أعظماً، لازلتِ من وطفاء ساكبة رويّة

قال: فرأيتُ دموعَ جعفر بن محمد تتحدّر على خديّه، وارتفع الصّراخ والبكاء من داره»^١.

عند التأمّل في هذه النماذج من الأحاديث والأخبار، نلاحظ أنّ رثاء أولياء الله والبكاء عليهم كانا معهودين منذ زمن رسول الله ﷺ وصحابته وتابعيهم وجرت عليه سيرة المسلمين في شتّى العصور. فقد صرّح النبي ﷺ بأنّ البكاء على الموتى من علامات الرّحمة ورقة القلب إذ إنّ الله تعالى هو الذي جعله في قلوب عباده.

وأما بالنسبة للأحاديث التي تتضمّن نهى الرسول ﷺ عن البكاء على الموتى وأنّ الميّت يتعدّب عندما يُبكي عليه، فيجب القول إنّ رواها قد أخطأوا في فهم قصده صلوات الله عليه بشكلٍ صحيحٍ، لأنّه كان يقصد الذين ماتوا على الكفر والشرك، لذلك وردت أحاديث تصحّح هذا الخطأ، كالحديث الذي رواه ابن عباس، حيث قال: «قال عمر: إنّ رسول الله ﷺ قال: إنّ الميّت يُعدّب ببعض بكاء أهله عليه.

قال ابن عبّاس، فلمّا مات عمر ذكرتُ ذلك لعائشة، فقالت: رحّم الله عمر، والله ما حدّث رسول الله أنّ الله ليُعدّب المؤمن ببكاء أهله عليه، ولكنّ رسول الله ﷺ قال: إنّ الله ليزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه»^٢.

وروي عن عمّرة أنّ عائشة عندما سمعت قول عبد الله بن عمر: «إنّ الميّت ليُعدّب ببكاء أهله عليه»، قالت: «يغفر الله لأبي عبد الرّحمن، أمّا أنّه لم يكذب،

١ - الأغاني، ج ٧، ص ٢٦.

٢ - صحيح البخاري، ج ٢، ص ١٧٣.

ولكن نسيَ أو أخطأ؛ إنَّما مرَّ رسول الله ﷺ على يهودية يُبكي عليها، فقال: إنَّهم ليبكون عليها، وإنَّها لتُعذَّب»^١.

فهاذان الحديثان دليلان صريحان يؤكِّدان على أن مقصود رسول الله ﷺ من «الميت» في قوله بأنَّه يتعدَّب بسبب البكاء عليه، هو الميت الكافر أو المشرك وليس المسلم. فكما مرَّ علينا في الأحاديث السابقة أنَّه صلوات الله عليه بنفسه قد بكى على أحبَّائه من الموتى وقلَّده في ذلك صحابته وتابعوه الذين حدَّوا حدَّوه، وراجت هذه السنَّة بين المسلمين قاطبةً.

١ - سنن التَّسائي، ج ٤، ص ١٧؛ مثله في موطأ مالك، ص ١٩٤.